عطاوي

قصة بقلم فهمي حسين

كان صديقي (عطا الله) قد تأخر عن الموعد ، وكنت قد اخترت طاولة منزوية في مقهى لا يرتاده مواطنونا لكي نختلي لمناقشة مسرحيتي البكر .. انا اعرف أن (عطاوي) كثير الذهول والنسيان . فاخذ يساورني القلق ، أهل سيأتي ؟ ام انه نسي الموعد ؟

كنت متلهفا لمجيئة ، فقد اخبرني قبل يومين أنه قرأ المسرحيةواعاد قراءتها وان لديه ملاحظات جدية حول « تطور الفعل » و « الضرورة المسرحية » و « نمو الشخصيات » و « ديناميكية الفعل » ... الخ ، من المصطلحات التكنيكية التي يحفل بها قاموس صديقي (عطاوي) . وكم اغاظني رفضه القاطع بان يفصح عن ملاحظاته في حينها .. فمقدنا هذا الموعد . كنت متحفزا للدفاع باستماتة عن باكورتي المسرحية .. فانا موقن بانني قمت بفتح جديد في عالم المسرح العربي على الاقل .. والويل لمن يتطاول عليه او ينال منه . ثم ساورني شعور بالقلق والجزع ، وراح ريقي ينساب غزيرا في بلعومي حتى كاد يسده وأعتصرت قلبي غصة . (عطاوي) — وهكذا اعتدت تسميته — يدرس المسرح دراسة اكاديمية منهجية ، هو لا بد قد أصاب خلال هذه السنوات من الدراية بشئونهذا ألفن الشائك العويصما يؤهله لابداء رأيهفي محاولة كمحاولتي المتواضعة .وقد قال ان لديه ملاحظات جدية ... يعني لديه شيء من هذا القبيل ولا شك ، ولكن ما هو يا ترى ؟! وتوالت في مخيلتي مشاهد مسرحيتي سراعا ، ومثلت شخوصها في طابور طويل .. فاستعرضتها وقلبتها ورزتها كما تراز البضاعة أو ألجنود أستعدادا للمعركة ! « كلها شخوص حية ديناميكية متطورة من « الداخل » و « الخارج » اذا شئت يا عطاوي ! فكيف تجرأ على ابداء ملاحظات جدية أو « ... » وهنا اطل وجه صديقي بشفتيه الثقيلتين المتهدلتين ونظارته « كعب البطل » وبقامته المربوعة المائلة الى امام وكرشه الناتيء الوجيه وذراعيه المسبلتين بارتخاء وخور ...

— اهلا عطاوي !

فلم يسمعني ولم يلحظني ، فناديته بصوت اعلى !

— عطاوي ! تفضل هنا !

عندما اخذ عطاوي مكانه على الطاولة ، بادلني التحيات ثم بضع كلمات عابرة وسكت ولم يبد عليه أنه ينوي التعرض لموضوعنا الهام .. ورغم لهفتي لم اجرؤ على مفاتحته لئلا اشعره بانني حافل برأيه ومتلهف لسماع ملاحظاته ... فصمت انا ايضا لكن على مضض .

***

— أي عطاوي ، كيف الاحوال ؟

— والله بخير . مع ابتسامة اعتبرتها ذات مغزى ومغزى عميق .

فاعتراني شيء من الارتباك واشتدت لهفتي لسماع ما سيقول . لكنني لم أستطع مفاتحته رأسا . فقررت أن اقوم بحركة التفاف حسبتها بارعة .

— شاهدت مسرحية هملت باخراجها الجديد ؟

— لا والله . وسكت ايضا .

— محاولة فاشلة لمصرنة هملت . اما اوفيليا فكانت اشبه بفتيات (الحانة) المبتذلات .

فلم يعلق عطاوي بسوى « هيه » لها الف معنى ولا معنى،انفرجت عنها شفتاه بزاوية صغيرة ثم عادتا الى وضع الاستلقاء ببطء وتراخ .

— ستشرب يا عطاوي ؟

— شاي . وانطبقت بوابتا الجحيم ، من جديد . فازددت حرجا ورحت أتشاغل بتصفح جريدة المساء ، فرأت كل عناوين الصفحة الاولى دون ان افقه لها معنى ... ثم طويت الجريدة ووضعتها على الطاولة ، دسست يدي بجيبي بحثا عن علبة السجائر دونما رغبة في التدخين . فلم اجدها .. فتشت جيوبي كلها وحتى المحفظة واخيرا عثرت عليها تحت الجريدة .. فاولعت سيجارة ، واخذت اتطلع خلال النوافذ الواسعة الى الشارع المتدثر بالثلوج ، لعلي اداري حرجي وارتباكي . الحديقة المقابلة جرداء .. لا شيء يبهج القلب .. انه الشتاء اللعين يقيد كل شيء .. الشارع موحش .. لا شيء .. لا شيء يلفت النظر . فعدت الى الجريدة ثانية ، وأنا اراقب جليسي طالب الاخراج المسرحي خلسة . كان مكوما على الطاولة يهوم باعيائه الابدي وعيناه الكئيبتان المخضلتان ترسمان على زجاجتي نظارته الضبابيتين السميكتين دوائر وحلقات تستدق وتتقلص حتى تتركز بنقطتين صغيرتين تسبحان في سائل لزج كابي اللون ...

واخيراً قررت أن ابادر الى اذابة الجليد المنيخ على طاولتنا وان اجره الى الحديث حول الموضوع مباشرة مهما كلف الثمن . وهممت بفتح شفتي فلم اقو على اخراج السؤال مصوتا ... وانفلت من فمي شي ليس هو بالكلام ولا الهمس ، بل هو الى الفحيح اقرب .. فتظاهرت بالتثاؤب رافعا كفي الى فمي مخافة ان يفطن الى الحرج الذي اعانيه . ثم لمحت عطاوي وهو يحاول عبثا مغالبة الخمول والسأم المخيمين عليه ، فخيل الي أنه فطن لا محالة الى مغزى حركتي هذه فقررت الهجوم الجبهوي لستر هزيمتي .

— رأيك بالمسرحية ؟

خرج سؤالي هذا اشبه بهرير الكلب الضارع المكبوت فلم يفلح بانتزاع عطاوي من تهويمه .

— هي ، رأيك بالمسرحية ؟

انفلت سؤالي هذه المرة زعيقا كاد يشق طبلة اذنه السميكة فجفل ، وحملقت بي النقطتان العائمتان على زجاجتي نظارته واهتزت الدوائر والحلقات المرسومة حولهما ودبت بهما الحياة .. فتعلقت عيناي بشفتيه وخيل الي انهما تململتا .. « اي يا الله .. يا علي مدد ! .. » وتدفق لعا بدافيء تحت لساني لكنني لم اجرؤ على بلع ريقي . ثم تململت الشفتان فعلا ، لكن بارتخاء قاتل .. فرسم الزبد المقيم في زاويتهما غلالة رقيقة تمطت وانتفخت ثم انبعجت ، فتناثرت عن خيط أبيض دقيق ظل يستدق ويستطيل مع انفراج الشفتين حتى انقطع فتكور على الشفة العليا ليفسح الطريق لشيء يوشك ان يخرج من جوف عطاوي .. « أي بالله !! » .

ولا طائل ...

وخطر ببالي قول احد الحكماء العرب وهو يتمنى ان يكون له عنق بعير لكي يسترد الكلمة غير الناضجة قبل ان تجتاز طريقها الطويل الى شفتيه . فنظرت الى عنق عطاوي دون ارادة مني ، انه قصير وغليظ ، ابعد ما يكون عن امنية ذلك الحكيم ، ثم انزلقت نظرتي خلسة الى بطنه ، كان يختلج برتابة كمنفاخ الحداد المتعب . فادركت انه ظفر ببطن البعير دون عنقه .

أحسست بالسخونة تصعد لرأسي وتتسرب الى اذني حتى سمعت هدير دمي الفوار . وجف ريقي ، وانفلتت من عيني دوائر وبقع سوداء وخضراء لتحلق في الهواء كالخفافيش . تكاثرت الخفافيش وتكاثرت حتى حجبت كل ما في المقهى وكل ما في الوجود الا وجه عطاوي بجبينه الاسطح الناصع وشعره السبط الغزير ، وشفتيه المتدليتين بسأم وخمول .. وبعد لأي شعرت كأن يدا خفية تقذفني بعيدا الى اغوار الظلام الذي اكتنفني وطمس كل ما في المقهى ، واحسست بانني اتضاءل .. اتضاءل ووجه عطاوي بنقطتيه العائمتين على زجاجتي نظارته الضبابية ، يتسع ويتسع فيملأ الوجود كله مهيبا يشع من قسماته وهج غريب .. « هل انا في حلم ؟ ام في يوم الحشر ؟ اهذا عطاوي .. ام ؟ » ثم انتفضت مذعورا ودعكت عيني واذا باليد الخفية تعيدني بطرفة عين الى موضعي ، وعاد وجه عطاوي الى حجمه الطبيعي وانحسر الظلام الذي لف الوجود حوله . حملقت مذهولا فوجدته لفرط دهشتي ما زال هو .. هو ذلك العطاوي الساهي الوسنان ابدا .

ولم يكن يبدو عليه انه يفطن الى وجودي .

***

كنت دائما انظر الى عطاوي نظرة ملؤها النهيب المشوب بنوع من التحدي ، كانني ازاء جبل منيع او كهف مرصود ، اريد اقتحام متاهاته لاستجلاء سره الدفين ، فيردني الصمت والظلام المعشش على ابوابه.

ماذا يدور في اغوار هذا الكهف الموصد ؟ ماذا يفكر هذا الرأس المهيب ؟ على م ينطوي هذا « الهرم » الاخرس الكئيب العينين ؟

وكنت دائما اتحين المناسبة او اصطنعها لجر عطاوي الحرون من صمته المطبق ، فلا افلح بسوى كلمات مبعثرة ، لا تجلو الغموض الذي يكتنف صوره في ذهني بل تزيده كثافة واكفهرارا .

جاء عطاوي لهذا البلد منذ سنين لمواصلة جهاده العلمي العنيد ، بعد أن خاب بدراسة الهندسة في بغداد . كان منذ البداية منفردا ، يحب العزلة . وقد استرعى اهتمامي بانافته ورزانته البالغتين ، ولم استنكر عليه ايثاره العزلة والانفراد ، فطلابنا جلهم احداث لا يناسبونه سنا ، وليس من اليسير ان يصطفي صديقا من بينهم ، فهم مراهقون لا هم لهم سوى مطاردة الصبايا ومعاشرة الفواني اللائي يحمن حول مطعم الطلاب الاجانب ويترددن على مقاهيهم المفضلة .

وضعت نصب عيني ان اتعرف على عطاوي وان اكون له الصديق الذي يطمئن اليه . الواقع انني لم اتجشم عناء كبيرا في التعرف عليه ... لكن في فهمه .

وكنت اقول لنفسي دائما علي ان اتريث بالحكم ، وان اتذرع بالصبر ، فهو فنان ، والغموض من احب صفات الفنان واكثرها طرافة.

كانت لقاءاتنا متباعدة ولم تكن لتجري لولا اصراري وملاحقتي انا .. فكنت احيانا اتربص به فاقتنصه اقتناصا بعد الغداء او العشاء – فقد لاحظت انه بدأ يتهرب مني – واجره الى احد المقاهي لاجاذبه – بعناء شديد – اطراف الحديث . وكانت احاديثنا البتراء تدور حول الفن ولا سيما المسرحي ... فقد سجل عطاوي آنذاك لدراسة التمثيل،وبعد عام اختار لامر اجهله ، الاخراج المسرحي فزاده ذلك قيمة بنظري.فاين المخرج من الممثل !! ودفعني ذلك الى التشبث بمحاولاتي اليائسة لتوثيق أواصر الصداقة بيننا ، فانا اهوى المسرح واحبه لحد الجنون .

وكنت كلما شاهدت احدى المسرحيات الجديدة – وهي كثيرة هنا – اظل اتلهف لرؤية عطاوي ، واروح ابحث عنه كالمحموم – دون ان اشعره بذلك طبعا لاناقشه الرأي فيها . وكم كانت خيبتي مريرة عندما كنت اكتشف انه لم يشاهد المسرحية .

في البداية كنت احاول ان اقتنع بتبريراته : مشغول .. الدراسة عويصة وجدية ... ثم عراقيل هذه اللغة اللعينة العصية الخ...

ومرت الشهور وتباعدت لقاءاتنا اكثر .. ثم سمعت عنه أنه وقع بحب فتاة تصغره باكثر من جيل ، وهي تلميذة مراهقة تهوى السينما لحد الهوس . وهام بها حتى لا يفارقها الا لماما . وكثيرا ما كان يلتقي به الطلاب وهو « ينشمعط » بذراع صبيته الشقراء كأنه يقتاد غزالا نافرا ... او يجدونه ليلا يرابط كالديدبان على الرصيف المقابل لشباكها متحديا حتى عواصف الثلج في الشتاء ليطلق لها قبلة هوائية حارة عندما تسدل ستارة الشباك وتاوي الى فراشها بعد ان تطل في غفلة من امها المتزمتة التي اكتشفت بهلع علاقتها بهذا « الشرقي الخامل البطين » ذي النظارة السميكة الذي يبدو بعمر أبيها او يكاد .. ثم تزوجا بعد مغامرات طريفة لن نأتي على ذكرها .

كان فضولي يزداد مع مر الايام . ماذا يعمل هذا الرجل ؟ كيف يقضي اوقات فراغه ؟ ماذا يقرأ ؟ . ورحت استقط انباءه من نزيله في بيت الطلبة .. قال لي هذا يوما : عندما يعود عطاوي الى القسم بعد ان يطير قبلته الاخيرة لشباك فاتنته الشقراء ، يبادر اولا الى اعداد الشاي مهما كان الوقت متأخرا . فيلتهم مع الشاي ما تيسر من المقددات والمعلبات التي لا يخلو منها درجه قطعا . وهو يسمي هذه الوجبة متندرا « بالعشاء الاخير » او « المتنوعة » التي ينسى كل شيء الاها . ولا يواظب على شيء مثلما يواظب عليها اللهم الا القبلة الطائرة . وبعد هذه الفريضة التي تستحيل معها المنضدة الى ساحة وغى تتناثر عليها الاشلاء .. يتكيء ويبسط ساقيه منفرجتين الى الجدار ويدفع الكرسي حتى يرتكز على قائمتيه الخلفيتين فقط ، ليكون بوضع اقرب للاستلقاء ... ويتجشأ مثنى وثلاثا ممسدا كرشه المنتفخ ويهوم على هذه الحال ساعة او بعض ساعة .. ومن ثم ينهض فيخلع ملابسه الخارجية وحذاءه بتؤدته المعهودة ، وهنا تنفجر الاحتجاجات ويتعالى الصراخ ... فانهض انا من فراشي الدافيء لاضع حذاءه خارج الحجرة، فنزيلنا الثالث وهو طالب الماني لا يستطيع احتمال النتن المتصاعد من حذاء صاحبنا وله الحق لانه اقرب الى سريره . وفي الفراش يتناول ما اصطلحنا على تسميته « بالكتاب المقدس » او « مفتاح الجنان » وهو كتاب روسي مصور سميك عن المسرح – تسلمه هدية من اخيه الذي يدرس في موسكو – فيتصفحه ويتأمل صوره ممتعا النظر بكل جزئياتها. وبعد حين يطوي الكتاب متنهدا :

– آخ لو اعرف روسي !! او « المسرح .. المسرح بحر » او « والله. هذا ستانسلافسكي عظيم » ثم « تصبحون على خير .. » فيتعالى شخيره . وفي الصباح التالي نخلفه الى معاهدنا لنعود وقت الظهيرة احيانا فنجده منهمكا بحلاقة ذقنه التي تستغرق ساعة ، او باعداد طبخته المفضلة من « الكرش والكراعين » التي ينفق للبحث عنها في زوايا المدينة ساعات احيانا ، فيطويها في محفظته – مخافة انظار الفضوليين الذين بدأوا يتندرون بولعه بالكرش – ويعود الى القسم جذلا نشيطا على غير عادته ... وهكذا منذ ثلاث سنوات .

تنازعتني شتى الاحاسيس والهواجس وانا استعيد كل هذا بانتظار

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ – الادب الملتزم ٥٠٠ ق.ل

٢ – ادباء معاصرون ٤٠٠ ق.ل

٣ – جمهورية الصمت ٤٠٠ ق.ل

٤ – قضايا الماركسية ٤٠٠ ق.ل

٥ – المادية والثورة ٤٠٠ ق.ل

٦ – جمهورية الصمت ٣٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب

ما سيتمخض عنه عطاوي . هل هو سكران ؟ كلا .. هذا محال . فان كأس الخمرة كما يقول عطاوي وهو حجة بهذا الشأن ، تعادل في هذا البلد قيمة كيلو من كرشة الضأن وكيلوين تقريبا من كراعين الخنزير او مثلهما من الكلاوي وبيض الغنم الخ.. هل يشكو التخمة ؟ اكيد . وهذه المرة اكثر من المعتاد .. فاشفقت عليه ، وهممت بمناداة النادل ليجلب له قنينة صودا علها تخفف عنه .. وهنا رمقني بنظرة حزينة طويلة ، رددت عليها بابتسامة مشجعة وربت على خده الحليق الريان .

ـ عطاوي . عطاوي !! مريض ؟ ليش ما تتكلم ؟

ـ الواقع ، تريد الصدق ، اسمح لي اقول ما عجبتني ... ركيكة .. ما بيها ديناميكية الكومبوزيسيا مفككة .. بعدين ما وجدت ضرورة مقنعة لخروج الشخوص على المسرح ...

فاختنقت عيناي وتطاير منهما الشرر ، فقد هالتني هذه الصفعة الخاطفة لا سيما وانا في غمرة اشفاقي عليه .. « لا يا غدار .. يا نذل » وعاودتني الفصة اللعينة ، واحسست برغبة ملحة بان اصرخ بوجهه ، او اجهش بالبكاء ، او اطلق قهقهة داوية ترتج لها اركان المقهى .. او أي شيء عنيف لانفض عني آثار هذه المباغتة التي اذهلتني واطاشت صوابي .. لم اقو على الاتيان بشيء . فاحسست بغثيان وطنين بأذني وكاد يتنابني الاحساس بالتنائي والتضاؤل ثانية ، واهتزت المرئيات حول طلعة عطاوي المخيبة وبهتت خيوطها .. وكادت تحجبها الخفافيش لولا انني تشبثت باخر خيط من ارادتي الخائرة المشلولة.. فتماسكت على نفسي ، وتعوذت من الشيطان واستعدت روعي رويدا رويدا .. ثم سمعت صوتا مبحوحا يخرج من حلقومي كاستغاثة مخنوقة:

ـ يعني ؟ ما فهمت ؟

ـ ثم الشخوص باهتة ... بلا معالم ... يعني مثلا .. ها .. حامد لازم تعرف باي فرع كان يدرس . ها .. ؟ وسعيد وغيره .. موهيك ؟ .. هذا يؤثر على تصرفاتهم وتفكيرهم .. موهيك .. ها .. ؟ يؤثر نعم .. موهيك ؟ مهم جدا .. ها موهيك ؟

فجاءت هذه صفعة على القفا بعد صفعته الجبهوية الاولى ولكن مفعولها هذه المرة كان مغايراً تماما ، فكانها اعادت لي توازني وصوابي.. فومضت في خاطري عبارة كنا نرددها في الحكايات الشعبية دون ان نفقه لها معنى : حينما يضرب البطل الفول بسيفه مرة ، يقول له الاخير: « ثني » فيرد عليه البطل : « امي ما علمتني اثني » . فاستمطرت الرحمة على ام عطاوي ميتة كانت او حية لانها لم تعلمه الا يثني . وارتسمت على شفتي ابتسامة غامضة ونظرت اليه نظرة حالمة ثم انزلقت الى عالم الذكريات ... وظل هو يتحدث وكلماته ترتطم بطبلة اذني كما ترتطم كرة المطاط بجدار وتعود الى حيث جاءت .. فلا احس منها بغير طنين أجش ... دم ... دم . ثم استيقظت ثانية وحملقت به فارتبك واهتزت النقطتان العائمتان على زجاجتي نظارته ، فراح يتمتم ويجمجم وعيناه ترمقانني كئيبتين مبتهلتين ، وشفتاه تزدادان تهدلا ... ويتكور في زاويتهما الزبد .. ثم خلع نظارته ، ومسح عن عينيه القذى، واعاد نظارته ، ثم نزعها كرة اخرى ، نظفها دونما حاجة .. ثم اعادها..

يا الله ماذا افعل ؟ ان صاحبي يُتعذب ... انها نفس الاعراض الخبيثة التي تعتريه في مثل هذه المناسبات .. فكيف اتصرف ؟ كيف انهي هذه المعركة الطاحنة ؟ دون ان اشعره بانه مخذول ... ظللت برهة احدق بنظرات فارغة بالشارع المندثر بالجليد ، كنت احس بوطأة اللحظات وكأنها اقدام فيلة او مردة تدوس على يافوخي ... حتى احتقن وجهي واحسست بالدموع تنساب حارة الى مآقي ... فغالبتها بجهد مضن .. وفجأة راودتني فكرة : من ادراني ان عطاوي لا يخامره في هذه اللحظة نفس الاشفاق بي وبوضعي المرتبك ؟!! فتملكتني ثانية شهوة لمقارعته والتفت متحفزا فلم اجد اثرا لعطاوي سوى قطعة نقود هي ثمن الشاي الذي استهلكه .

فهمي حسين

زهرة الملح

يا وطنا غارت به الانجم
دهرا ... وطال ليله المظلم
ويا غريب الدار .. عبر المدى
في كل أرض من سراه البعيد
يشق أسوار الليالي صدى
للتيه ، للضياع ، للاسى
للغربة السوداء ، يا أرصفة الجحيم
يا موته اليومي ، يا مخاضه العقيم
ليمخر الشريد في البحار
ليحصد الاشواك في القفار
ليسأل الظلام والنهار
والضجر البارد ، والجليد
والصمت في الحانات ، في العيون
وفي الضباب الارمد البليد
هل من جديد للعتيق الجديد ؟
أيا ثمالات كؤوس تدور
ولم تزل تدور رغم النهار
قد اعتلى ، واستيقظ الصغار
وأينعت في الارض أزهار نار
يا زهرة الملح لعنت القدر
لعنته ... فما يزال المطر
لم ينقطع ... ولن يسد الجراد
اشراقة الشمس ، ولن ينطفي
رغم الدياجي في سمانا القمر

برلين الشرقية

كاظم السماوي